القيم التربوية والمهنية لدى مدرسة محمد علي الطبية

Educational and Professional Values at Mohamed Ali's Medicine School

محمود مهدي *
mmm.badwy@hotmail.com

ملخَّص:

يُلقي هذا البحث الضوءَ على جانب سلبي من جوانب مهنة الطب اليوم وما يرتبط بها من مِهَنٍ مساعدة، ويتمثل ذلك في تردِّي الجانب السلوكي والأخلاقي والمهني لبعض منسوبي هذه المهنة الشريفة، واستغلالهم لما منحهم الشرع الحنيف وما أولاهم المجتمع من رُخَصٍ ارتكبوا بها المحرمات وانتهكوا الحُرمات.

كما يلفت النظر إلى ما يحتاجه هذا السلوك من تقويم وإصلاح وبناء للشخصية الطبية على أُسس أخلاقية ومهنية راسخة يتعهدها جميع من يملك أدوات الإصلاح بالرعاية ودوام التوجيه في البيت والمدرسة والمسجد والجامعة والنقابة ووسائل الإعلام ... إلخ.

وكان لا بُدَّ من التذكير بالماضي القريب الذي أشرقت فيه شمس النهضة الطبية الحديثة على ربوع مصر من خلال مدرسة محمد علي الطبية، ففي أقل من عقدين من الزمان اكتمل فيها صرح الطب عِلمًا وممارسة وتأليفًا في مناهجه وعلومه، وترجمة لأهم ما جادت به قرائح الأوروبيين في موضوعاته، قاد مسيرة بناء هذا الصرح والعناية به مسئولون ومعلمون وتلامذة جُلُّهم من أبناء مصر الذين تسلحوا بالإيمان بالله، وحُبِّ الوطن، وتقديسِ العلم، وتقديرِ العلماء، وإنكار الذات، والعزم على النهوض بالوطن من كبوته، فلم يدخر أحدٌ كان له دور في

* الخبير بمركز التُّراث العربيّ بجامعة مصرَ للعلوم والتكنولوجيا، ونائب مدير المركز.

هذه الأيقونة جهدًا إلا وبذله ابتغاءَ وجهِ الله، وســـرعةِ اللحاق بركب النهضـــة الأوروبية الحديثة.

لقد سجَّل التاريخ لهذه المدرسة أروع السِّيَر، وحفظ لها أحسن النماذج التي تحلَّى بها جميع منسوبيها من قيم عالية، وأخلاق سامية، وعلم واسع، وممارسة تحكمها ضـوابط لا حياد عنها، وليدرك القائمون على أمر المؤسـسـات التعليمية الطبية بعدها أن ممارسـة مهنة الطب أمانة لا يتحملها إلا ذوو العزم، ورسـالة لا يؤديها إلا أولو الألباب، وأن أي قصـــور يطرأ على المحافظة على هذه الرســالة وعلى اســـتمرار أدائها بالهمة والعزيمة والإخلاص لا تُجْدِي معه العلاجات الأحادية، ولا المســكِّنات الفردية، بل لا بُدَّ أن يشـــارك فيها كلُّ ذي علاقة بهذا العلم ومُخْرَجَاتِهِ ومُمَارَسَاتِهِ بِدَوْرٍ فاعل محدَّدِ الوسائل والأهداف.

وإن شـئنا أن تعود لهذه المهنةِ الجليلةِ سـيرتُها التي ترطِّب الألسـنة، وذِكْرُهَا الطيب الجميل، وأن يتحلَّى منســوبُوها بما تُوِّجت به هامات الســلف من أكاليل الفَخْر وتخليد الذِّكْر، فلن يكون إلا بالتزام السبيل الذي سلكه السابقون.

ومن هنا، فالواجب اليوم أن توضـع البرامج التثقيفية والمناهج الدراسـية التي تبرز دور مؤسسي هذه النهضـة الطبية وترسِّخُ إيجابيَّاتهم في أذهان دارسي علم الطب.

<u>الكلمات المفتاحية:</u> القيم التربوية، علم الطب، أخلاق الطبيب، مدرســـة محمد علي الطبية، قسَم الطب.

Abstract:

This research paper sheds light on a negative aspect of the medical profession today and the associated auxiliary professions. It focuses on the deterioration of the behavioral, ethical, and professional aspects of some members of this noble profession, and their exploitation of the privileges granted by Sharia law and society to commit forbidden acts and violate sanctities.

It also highlights the need for this behavior to be corrected and reformed, and for building the medical character on solid ethical and professional foundations. These foundations must be nurtured by everyone with the tools for reform, through continuous guidance at home, school, mosque, university, professional associations, and the media, among other platforms.

It was necessary to remind of the recent past when the sun of modern medical renaissance shone upon Egypt through the Mohamed Ali School of Medicine. In less than two decades, the edifice of medical science, practice, and literature was completed, including the translation of the most important European contributions in the field. The construction and care of this edifice were led by responsible officials, teachers, and students, most of whom were Egyptians armed with faith in God, love for the homeland, reverence for knowledge, respect for scholars, selflessness, and determination to uplift the nation from its setbacks. Everyone involved in this iconic endeavor spared no effort, seeking the pleasure of God and the swift pursuit of the modern European Renaissance.

History has recorded the most remarkable stories for this school and preserved the best examples of high values, noble ethics, extensive knowledge, and practice governed by unyielding rules. The leaders of medical educational institutions must realize that practicing medicine is a trust borne only by the determined, and a mission fulfilled only by the wise. Any shortcomings in maintaining this mission and continuing to perform it with vigor, determination, and sincerity cannot be remedied by individual treatments or isolated palliatives. Instead, all those related to this science, its outputs, and its practices must play an active role with well-defined means and goals.

If we wish for this noble profession to regain its reputation that sweetens tongues and its beautiful, commendable mention and for its members to be adorned with the laurels of pride and eternal remembrance

as their predecessors, it will only be by adhering to the path taken by those before us.

Therefore, today it is essential to develop educational programs and curricula that highlight the role of the founders of this medical renaissance and instill their positive contributions in the minds of medical science students.

Keywords: Educational Values, Cedical Science, Medical Ethics, Mohamed Ali School of Medicine, Medical Oath.

مظاهر طبية صادمة:

تطالعنا بين الحين والحين أخبارٌ صادمةٌ تتعلق ببعض المنتسبين إلى مهنةٍ من أجَلِّ المِهَنِ وأشرفِها، ألا وهي مهنةُ الطب، فتكشف لنا هذه الأخبارُ عن تخلِّي كثير من هؤلاء عن قِيَمِ وآدَاب وأخلاقيات وسُلوكيات هذه المهنة الشريفة التي جعلها الله –عز وجلّ– إحدى معجزات السيد المسيح –عليه السلام– فجعلوا من عياداتهم أوكارًا لهتك الأعراض، وسرقة ونقل الأعضاء، والتلاعب بالأنساب، واستلاب أموال الناس بغير حق، وتهديد بعض المرضى بإفشاء أسرار أمراضهم، أو تصوير مريضة في وضع فحص خاص والتهديد بنشر صور فاضحة لها إن لم تستجب لرغبات خسيسة، ومساعدة الحاملات سفاحًا على التخلص من حملهن، بل ووصل الأمر اللاإنساني بطبيب خلا قلبه من الرحمة أن أعدَّ فوق عيادته مِحْرَقَةً يتخلص فيها من الأجِنَّة التي قام بإسقاطها.

وليس هناك مبالغة إذا قيل: إن الأمر قد تجاوز هذه الثُّلَّةَ من الأطباء في أحايينَ إلى بعض منسوبي مِهَنٍ طبيةٍ أخرى كالعلاج الطبيعي، ومعامل الأشعة والتحاليل الطبية، بل والعاملين في مجال الخِدمات الطبية الذين وقعوا في براثن الشيطان، وضلوا وحادوا وجاسوا خلال الأعراض.

كل هذه النماذج تساهم بقدر غير هين في تشويه محاسن هذه المهنة الشريفة، وتضر بسمعة الشرفاء من الأطباء الذين يخافون الله سبحانه، ويعلمون أن عينه سبحانه عنهم لا تغيب، فيرعون للمريض حَقَّه، وللمِهْنَةِ الجليلةِ شرفَهَا ونَصَاعَةَ بَيَاضِهَا.

هذه الأخبار التي قد تمرُّ مرور الكرام على البعض هي في الوقت ذاتِه جحيمٌ دائم على بعض من ساقه سوءُ حظه إلى هذه الأوكار المشبوهة يومًا ما وهو لا يعلم حقيقتها، بل دخلها وهو آمن مطمئن يحمل أملًا في الله، وثقةً في طبيب يرجو الله أن يتحقق مرادُه شفاءً أو إنجابًا على يديه، فإذا بالأخبار بعد

ذلك تكشف له عن خيانةٍ لكل الأمانات، واعتداءٍ على الحُرُمَات، وهتْكٍ للأعراض، وخلطٍ للأنساب، فيُحْكِمُ الشَّكُّ خِنَاقَه على مرتاديها، وتَتَزَعْزَعُ أركانُ الأُسْرَةِ التي غَالِبًا ما تتهاوَى مخلِّفةً آثارًا نفسيةً واجتماعيةً في غاية الخطورة.

ضرورة الإصلاح:

لكل ما سبق ومع تفاوت الأسبابِ وآثارِها السلبيةِ، كان لا بُدَّ من إعداد شخصية الطبيب إعدادًا قائمًا على حميد الأخلاق، وتأديب النفس، والحيلولة دون شرودها عن جادَّة الحق والصواب، واحترام العهود والمواثيق، والحفاظ على كل ما من شأنه أن يعود على المريض بالخير والسلامة، ويحفظ للطبيب منزلته ومكانته، وهذا المهمة يجب أن تُعْنَى بها جميع المؤسسات التربوية والتعليمية والدينية والتثقيفية والإعلامية، لا بتوجيه برامجها ونشاطها إلى طلاب المرحلة الجامعية فقط، بل لا بُدَّ من العناية بترسيخ هذه القيم بالنشء منذ التحاقهم بدور العلم، إن لم يكن قبلها لتصبح هذه التعليمات مُكَوِّنًا رئيسًا من مُكَوِّنَات مَلَكَاتِهِم وصفاتهم الشخصية والمهنية.

مفهوم القيم:

لا أظن أن أحدًا من المسلمين مهما كان مستواه العلمي والفكري محدودًا يقرأ أو يسمع قول أم المؤمنين عائشة –رضي الله عنها– في رسول الله –صلى الله عليه وسلم– : "كان خلقه القرآن[(1)]" إلا وسيدرك من الوهلة الأولى أن المراد بالخُلُق هو مجموعة القيم والصفات الكريمة والخصال الحميدة التي تحلى بها النبي –صلى الله عليه وسلم– التي مدحه بها ربنا –عز وجل– في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: 4]، وأن الأساس المكين لهذه الصفات هو كتابُ الله، ومن أجلِّ صفاته –عليه السلام– التي حَرِيٌّ بكل مسلم أن يتأسَّى به فيها: الرحمة، والأمانة، والصدق، والوفاء بالعهد، ولين الجانب، والتواضع،

وصيانة حقوق الأخرين، والإحسان، وكظم الغيظ، والعفو عن الناس، والبشاشة، والحلم، والصبر، والزهد، والعزة، وغير ذلك مما لا يحصيه عد.

وعلى ما سبق يمكن القول: إن القيم هي مجموعة من الآداب الراقية والأخلاق الكريمة والخصال الحسنة التي تتكون لدى المسلم طبيبًا وغيرَ طبيب من خلال تربيته الحسنة وتعاملاته الصادقة، وتجاربه المفيدة، وثقافته الواسعة، حتى تصبح جزءًا من شخصيته التي تميزه عن غيره، وتساعده على دقة الاختيار، واتخاذ القرار، وترتيب الأولويات والانخراط في المجتمع انخراطًا إيجابيًّا يساهم في تطوره ورُقِيِّهِ ورَغَدِ عيشه.

إن القِيَمَ التي تكوّن الشخصيةَ السويَّة لا توجد أو تُكْتَسَب مجتمعة ودفعةً واحدةً، فالطبيعي منها ينمو بنمو صاحبها ويُصْقَلُ بكثرة تجاربها ويترسخ بدوام التزامها، والمُكْتَسَبُ يُحصَّل واحدةً تلو واحدةٍ فتُكَوِّن كلٌّ منها جانبًا من جوانب الشخصية.

وكثيرًا ما تكون ردود فعل المجتمع تجاه تصرفات المرء عاملا مساعدًا في تقييم سلوكياته؛ فإن كل ما يجهر به المرء ويفعله ويتلقاه الأخرون عنه بالرضا والثناء، فهو من القيم الحسنة.

وإن كل ما يخفيه من سلوكيات وأعمال خشية استهجان الناس ورفضهم إياه، فهو لا يمت للقيم بصلة.

والطبيب فرد من المجتمع إذا كان علمه بالطب قد رفعه درجة، فإن التحلي بالأخلاق الحسنة والآداب الربانية والقيم النبوية سترفعه درجات، لذا فإن المتأمل لما ذكره العلماء من الصفات التي يجب أن يتحلَّى بها الطبيب يجدها نابعة من عين الشريعة الثرَّة، وليست من بنات أفكار الفلاسفة، أو حكرًا على الأطباء، بل هي صالحة لكل من ينشد الصلاح والفلاح في كل زمان ومكان ومهنة وعمل، أوَلَيْس قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه[2]"

من جوامع الكلم التي جمعت كل ذي عمل في قوله: "أحدكم"، كما جمعت المهن والوظائف والأعمال كلها في كلمة واحدة هي "عملا"، ثم حدد صـــفة العمل المحبوب عند الله تعالى وهو "الإتقان"، لأن العمل المتقن هو المحبوب من الله، التام الفائدة، النافع للناس في دينهم ومعاشهم.

القيم الطبية في التراث العربي:

لقد تنبه علماؤنا القدامى لهذا الأمر منذ أن صـــار الطب مهنةً منتظمةً، يزور المرضى فيها الطبيبَ في البيمارستان، أو يُدعَى الطبيبُ لبيوتَ المرضى؛ فأحاطوا المنتسبين لمهنة الطب بالتوجيه والترغيب والترهيب والتحذير ، ووضـعوا الضـــوابطَ التي تكفل للطبيب شـــخصـــيةً محاطةً بالتوقير والإجلال والاحترام، وللمرضـــى الشـــعورَ بالأمْنِ والأمان، وصـــنَّفوا مؤلَّفاتٍ خاصـــة بأخلاق وآداب الطبيب[3]، وضـــمنُّوا بعض مؤلفاتهم أبوابًا ترســـم للراغب في مزاولة هذه المهنة صورةً مُثْلَى يجب عليه أن يتصف بصفاتها، وأن يتحلَّى بملامحها، وتوضح له –بما لا مجال للشـك فيه– ما عليه من واجبات، كي يكونَ على بَيّنَةٍ من الأمر، وما له من حقوق يضـــمن تأديتُها صـــونَ الطبيب عن النَّقائص وإتيان المعايب والمفاسـد، وتفصـيل الحديث عن هذا سـيخرج بنا عن حدود الموضـوع؛ لذا فقد أشـــرت إلى بعض الكتب التي عُنيت بهذا الجانب وأهمها كتابا الرازي وإســـحاق الرهاوي ليعود إليهما من شاء للتفصيل والاستزادة، واكتفيت بما استل منهما من أخبار في المحاور التالية.

منزلة الطب والأطباء:

لا يختلف اثنان في أي زمان أو مكان على شـــرف هذه المهنة وعُلُو قدرها، ورِفعة منزلتها وجَلالها، فقد ضـــاعف الله أجرَ من حفِظ نفسًـــا وأحياها بإذنه، فقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ﴾ [المائدة: 32]، وقد ثمَّن الرازي هذا الشـــرف، وأثنى على الأطباء ثناءً يدل على رِفعة مكانتهم وســـمو مرتبتهم،

فقال: "إنهم –أي الأطباء–قد جمعوا خِصالا لا تجتمع لغيرهم، ولمَ لا وهم المنُوط بهم إدخال المسرَّة على المشتاقين لها، وهم الساهرون على راحة غيرهم."(4)

ويذكر أنهم يَتَّسِمُونَ بالعديد من الصفات التي تخص الملوك والأمراء، أوَليس الملوك والأمراء هم الآمرون الذي لا يؤتمرون، وإذا أَمروا فلا مَرَدَّ لأمرهم!، والطبيب وحده هو القادر على أن يأمر الملوكَ والأمراءَ، وغالبًا لا يُرَد أمرُه، بل يقف الجميع أمامَه ولسانُ حال صحته يقول: سمعًا وطاعةً يا مولاي(5).

ويروي الرازي موقفًا حضره بين ملك وطبيب، يدلِّل به على تقدير الملوك للأطباء، ورفعة مكانتهم لديهم، وقربهم منهم، وثقتهم فيهم، فهم يُسْلِمُون للطبيب وحده أمر حياتهم، فيقول: "قد كنتُ ذاتَ يوم في مجلس بعض الملوك، وكان له مُتَطَبِّبٌ(6) اختصه لنفسه، فدخل علينا المُتَطَبِّبُ، فَأَغْلَظَ لهُ الملكُ في القَوْل، وقال: دعاك فلانٌ الحاجبُ إلى داره فلم تُجِبْه!.

فقال المُتَطَبِّبُ: أيَّد الله الملكَ، الأصحَّاءُ يَحْضُرُون إلى الأطباء، ولا يَسْتَحْضِرُونَهم؛ إلا الملكَ.

فقال الملك: إنما كان لك ذلك قبل أن تَوَسَّمْتَ بخدمتنا.

فأجاب المُتَطَبِّبُ بجواب أعْجَبَ الملكَ والحاضرين، فقال: أيَّد الله الملكَ، ظننتُ أن خدمة الملكِ تزيد في الرِّفعة وعِظَم القدْرِ لا في الضّعة وخُمولِ الذِّكر.

ففهمه الملكُ واعتذر إليه، وأكرمه وخلع عليه.(7)"

وهذه الكلمات الأخيرة هي لُبَّ الاستشهاد على منزلة الطبيب الذي بأدبه وحُسْنِ منطقه جعل الملك يعتذر إليه أوَّلًا، ثم يكرمه ثانيًا بتقريبه ورفع درجته، ثم يخلع عليه العطايا ثالثًا.

والإمام الشافعي ينبئنا بأهمية ومكانة هذه المهنة الشريف، فيقول: إنما العلم عِلْمَان: عِلْم الدين، وعِلْم الدنيا، فالعِلْمُ الذي للدين هو: الفِقْه، والعِلْمُ الذي للدنيا هو: الطِّبُّ.(8)

ومعلوم أن علم الفقه هو الذي تصلح به عبادات المسلم، وأن علم الطب هو الذي يحفظ للمسلم صحته التي بها يقدِر على أداء هذه العبادات، كما أن صلاح البدن معين في صلاح السعي في طلب الرزق وإتقان العمل وزيادة الإنتاج.

ويبين الطبيب عيسى بك حمدي معلم الأمراض الباطنية في المدرسة الطبية في مقدمة كتابه هبة المحتاج في مختصــــر الطب الباطني منزلةَ علم الطب وقدرَه؛ ليدرك تلامذة المدرسة الطبية جلاله ومنزلته، ويعملوا وفق ما يستحقه من تقدير، فيُشـبِّه علمَ الطب بعَيْنِ الإنســان بجامع عدم الاسـتغناء وعظم الأهمية، وشــعور المرءِ بالمسـرة في وجودهما وسـلامتهما، فذكر أن منزلة علم الطب بين العلوم كاللُّباب لها، فقد أجمع العقلاء على منفعته، واتفق النبلاء على ثمرته، ووردت فيه الآثار النبوية"، ثم يتعجب من حال هذا العلم الذي سـمت به مصــر على كل الأقطار آنذاك فيقول: "لله دَرُّ هذا العلم ما أبدعَه!، وبالتقدم ما أنفعَه!، فقد جُمعت فضائلُه ونمت فَواضلُه، ومن أدلِّ الدليل على أفضليته وعظيم منفعته أنه لا كسـائر العلوم اختصــارًا، ولا يضــارعه غيرُه انتشــارًا، فهو مطلوب في كل الأديان، ومتعيَّن لكل إنسان.(9)"

لقد صــدق عيســى بك حمدي ولم يتجاوز الحقيقةَ والواقعَ، فالطب من أكثر العلوم شـيوعًا وانتشـارًا وممارسـة، لم تقلل من منزلته ومكانته مِلَّةٌ من المِلَلِ، ولم يستغنِ عنه إنسان مهما كان محافظًا على صحته، فلله دَرُّ الطبيب، أي مال أو ثناءٍ يمكن أن يكافئه على إخلاصـــــه وتعبه وســـهره وقلقه وغيابه عن بيته وأهله لمتابعة مريض يرجو له الشفاء!!!

العناية بالنشء:

إن كل شخصية في الحياة لها سماتها التي قد تتشارك فيها مع غيرها، ولها أيضا سماتها التي تنفرد بها عن سواها، وهذه السمات أو تلك لها مصادر تُحصَّل منها، ومن أهم ما يجب على جميع أفراد المجتمع المســلم التحلي بها منذ نعومة

أظفارهم لينموا وقد أُشـرِبوا في قلوبهم حبَّ الفضـيلة والمكارم ومراقبة الله والخوف من غضـبه؛ لتُبنى شـخصـياتهم على هذا المُثل العالية التي تنعكس إيجابًا على سلوكياتهم بعد ذلك في وظائفهم وأعمالهم ومعاملاتهم:

*توثيق الصلة بالله، والعمل على طاعته، بحيث يُقدِم الفرد على عمله وكأنه يرى الله سبحانه وتعالى، فإن لم يكن يرى الله سبحانه، فليعلم أن الله يراه.

*اليقين بوعد الله ووعيده، وأن المرء مجازٍ على ما قدمت يداه، فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يره.

*تقدير الإسلام للنفس البشرية عمومًا، وحرصه على سلامتها، فجعلها من مقاصـــــده الكلية التي حضَّ على المحافظة عليها، ودفع الأذى عنها، وعدم الاعتداء عليها، أو التهاون في نجدتها وإغاثتها وسلامتها.

*إدراك المرء أنه في عمله لا يحقق أفضل النتائج بفضل ذكائه وسعة علمه وتفوقه ونبوغه، فالجميع يقدمون أســـبابًا مثلهم كمثل الفلاح يبزر البزور في الأرض ويرويها، أما من يتولى إنباتها وإنماءها وإثمارها ويرعاها حتى تؤتي أكلها فهو الله وحده، فلا يغتر ناجح بنجاح، ولا طبيب بشفاء، ولا مخترعٌ بإبداع وإبتكار، فيسيرَ في رَكْب قارون الذي خرج على قومه في زينته فخورًا متعاليًا قائلا: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ **[القصص: 78]** .

*على كل إنسـان أن يشـكر الله تعالى على ما ينجزه وما يحققه، وأن يذكر من شـاركوه هذا الإنجاز بالثناء الجميل، لأن شـكر الله بداية الزيادة في التوفيق والنجاح، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله.

مدرسة محمد علي الطبية:

هي المدرسـة التي وافق والي مصـر محمد علي باشـا على إنشـائها لتقوم بتخريج أطباء أكْفاء يسـاهمون في علاج جنود الجيش ورجال الأسـطول وعموم المصـريين على أُسس علمية، وذلك بعد توصـية الطبيب الفرنسـي "كلوت بك"

الذي كان يعمل طبيبًا وجراحًا بالجيش، والتي تضـــمنت مذكرته المرفوعة لمحمد علي أن مصر تملك البِنية الأساسية التي يحتاجها تعليم الطب الحديث، والمتمثلة في وجود مستشفى للعلاج، وأطباء متميزين للمعالجة، ومصلحة للصحة تُعْنَى بإدارتها وتضع اللوائح التي تضبط سير العمل بها، والباقي هو استغلال هذه العناصـــر مع اختيار عدد من التلاميذ الذين يجيدون القراءة والكتابة والحســـاب، ليتم تعليمهم الطب، ليكونوا أطباء مصـــريين يؤدون الأعمال الصـــحية للجيش والبلاد، ولم يتردد محمد علي في الموافقة على تنفيذ توصية "كلوت بك[10]".

وفي غُرَّة شـــعبان عام 1242هـ/ 28 من فبراير1827م، بدأت الدراســـة بالمدرســـة الطبية بمنطقة أبي زعبل بمجموعة من تلامذة الأزهر الذين نُقلوا إلى المدرسة الطبية، وأظهروا نبوغًا لاقى استحسانا ورضا، ولم يكن الأمر سهلا على كل المستويات، فقد ظهرت عقبات عديدة كادت تؤثر في مسيرة المدرسة، لكن مع الإرادة القوية والعزيمة الصـــادقة أمكن التغلب على الكثير منها، وتم إرســـال البعثات العلمية الطبية إلى فرنســـا وغيرها، ثم عاد المبتعَثون ليســـاهموا في تقدم المدرســـة تدريسًـــا لتلاميذها، وتأليفًا لمناهجها، وممارســـةً لعلاج المرضـــى في المستشفيات، حتى تمكنت المدرسة خلال خمسةَ عشـرَ عامًا من تخريج عدد كبير من الأطباء الذين قاموا بدورهم العلاجي والتعليمي والاجتماعي على أكمل وجه.

المدرسة وتكوين شخصية الطبيب:

حين أتم المصـريون المبتعثون إلى فرنسا دراستهم الطبية بفرنسا وعادوا إلى مصر أُوكل إلى الكثير منهم أكثر من مهمة طبية، فبعضهم عمل مدرسًا للمناهج الطبية النظرية بمدرسة الطب، وطبيبًا ومدرسًا عمليًّا بالمستشفى التعليمي، وفي كلٍّ كان جميع من عملوا في هذه الوظائف على قدر المســـئولية علميًّا وتربويًّا وتأهيلا للأجيال الطبية التي تتخرج في هذه المدرســـة، فكانوا قدوةً وأنموذجًا

يحتذى لتلامذتهم بحسن آدائهم، ورقي خلقهم وسلوكهم، وحسن توجيههم إلى الفضائل، وتبصيرهم بمنزلة ومكانة وطبيعة مهنة الطب، وواجباتهم نحو مجتمعهم التي هي نابعة من شريعة الإسلام، ففي قاعات الدرس عمل مدرسو مدرسة الطب على غرس مفهوم المسئولية والواجب في نفوس تلاميذهم ليستشعروا ثقل الأمانة التي سيحملونها والمسئولية التي سيتكفلون بها.

يُحدث الطبيب محمد علي بيك الحكيم، وهو من أشهر أطباء المدرسة آنذاك تلامذته مصورًا لهم رحلتهم في دراسة علم الطب والتي يجب أن يتوفر لها العديد من المقومات والصفات التي تكفل لها النجاح فيقول:

"الطب كزراعة النبات، فالذهن الجيد والفهم الذكي بمنزلة الأرض، والدروس بمنزلة البذور.

ومبادرة الطالب لدراسته الطب في وقت اتقاد قوته الحافظة بمنزلة وضع البذر في وقت أوان وضعه.

وحُسن السَّير وكرم الأخلاق كالهواء الصالح لتغذية النبات، وبه ينمو ويكثر ثمرُه.

وكثرة المطالعة بمنزلة خدمة الأرض ليزداد خصبها.

ومُضي المُدة المقنَّنة للدراسة بتمامها بمنزلة المُدة الكاملة التي يبلغ فيها النبات بهمته ونضارته وجودته نضج ثمره.

فمتى استوفى هذه الأمور الستة في تحصيل صناعة الطب صار طبيبًا بالفعل لا بالاسم فقط، واستحق أن يوثق به[(8)]".

فأجمل به من أسلوب حسي رائع يقرب الأستاذ به أمورا معنوية إلى أذهان طلبته؛ ليحثهم على الجد والاجتهاد والصبر على استذكار الدروس الصعبة، وعدم اليأس مع مضاعفة الجهد حتى يحققوا غايتهم السامية، فيصوغ تلك المعاني في صورة محسوسة، سهلة الإدراك واضحة الدلالة.

كما كان مدرسو المدرسة الطبية يعْلمون أن مؤلفاتهم الطبية التي يضعونها لتدرَّس ضمن مناهج مدرسة الطب سيكون لها دور كبير في تكوين شخصية الطبيب علميًّا ومهنيًّا؛ لهذا لم يفوتوا الفرصة بتذكير تلامذتهم بواجباتهم المهنية، فكتب جُلُّ المعلمين في صدر بعض كتبهم مجموعة من الوصايا التي تناسب التخصص الطبي المؤلَّف فيه، وذلك لأن الطفرة الطبية التي أشرقت شمسها على مصر كان كثير من المصريين ينظرون إليها بعين الريبة والرفض والخوف، فعلى سبيل المثال وجد المصريون أنفسهم حينما يذهبون للمستشفيات أمام عيادات مختلفة التخصصات لم يكن لهم ولا لآبائهم من قبلهم عهد بمثلها، ففي عيادات الجراحة وجدوا أنهم أمام ألوان جديدة من الجراحة الطبية لم تكن معروفة لهم قبل سنوات، حيث كانت الجراحة تخصص حلاقي الصحة ومدعي التطبيب اعتمادًا على الحجامة والفصد وبطِّ بعض الدمامل والخراريج، أما الآن فقد وجدوا أن الجراحة قد اتسع مجال استخدامها في علاج العديد من الأمراض التي تقتضي استئصالا أو استخراجًا لحصاة أو رصاصة أصابت جنديًّا في معركة، أو خياطة الجروح العميقة في البطن عند خروج الأمعاء، أو الإصابة بالبواسير وغيرها، فكان لابد من إعداد الجراح إعدادًا طبيًّا ونفسيًّا عاليًا حتى يكتب الله له النجاح ليتشجع المرضى على زيارة الطبيب والاستسلام لمشرطه ثقة منهم فيه، ولعل العناية بالجراح كان لكلوت بك فيها نصيب؛ لارتباطه بالجراحة ممارسًا ماهرًا ومعلمًا متقنًا ومؤدبًا حانيًا، فعُني بالتشريح الذي هو مفتاح الجراحة الناجحة، وسار على نهجه مَن خلَفه من أساتذة المدرسة الطبية، فلم يكتفوا بالتعليمات الشفهية التي يلقونها على مسامع تلامذتهم في قاعات الدرس النظري، وفي غرف التشريح والعمليات الواقعية، بل ضمَّنوا مؤلفاتهم الدراسية الخاصة بالجراحة أبوابا تخص الجرَّاح وصفاته وما يجب أن يتحلى به من صفات طبيعية وصفات مكتسبة؛ ليكون قادرًا على تحمل المسئولية وآداء الأمانة نحو المرضى،

ففي كتاب "مبلغ البراح في فن الجراح" يخصص المؤلِّف فصلا في صدر الكتاب بعنوان"**صـــفات الجراح**" تحدث فيه عن شـــخصـــية الجراح التي يجب أن تتحلى بنوعين من الصفات هما:

الصفات الفطرية: التي هي جزء طبيعي في شخصية من يفكر في ممارسة الجراحة.

والصفات المكتسبة من الوالدين والأُسرة والبيئة والأصدقاء والمدرسة والزملاء ... الخ.

وبنظرة تفصيلية في هذين النوعين من الصفات نجد المؤلف يرى أن الجرَّاح لابد أن يكون حسن التربية، عطوفًا، شفوقًا، كريمًا، سريع النجدة، هادئًا، لما لكل ذلك من أثر إيجابي في نجاح ممارسـته لفن الجراحة وحسـن معاملته للمرضـى، واســـتيعاب ما قد يدفعهم ألمهم إليه من غلظة القول وبذاءة اللفظ وحِدَّة في التصـــرف مع الطبيب، دون أن يُسِـــرَّ في نفســـه غيظًا أو كمدًا أو يدفعه هذا التصرف للتهاون في إنجاز عمله على أكمل وجه.

ولما كانت يدُ الجراح هي آداته الوحيدة التي يعوّل عليها في إنجاز مهمته، فقد ذكر المؤلف ضرورة العناية بها، وحسبه أن تتوفر فيها الصفات التالية:

خلو اليدين من الآفات والأمراض.

أن تكون اليدان ناعمتين ملســاوين مســتويتي الســطح غير خشــنتين ولا مشققتين.

أن تكونا ثابتتين لا ترتعشـــان، حتى لا يتجه مشـــرط الجراح إلى جهة غير مرادة، أو يجرح عضوًا سليمًا.

أن تكونا سريعتي الحركة، خصوصًا حركة الأصابع؛ لينجز عمله بسرعة مما يقلل من آلم المريض.

أن يعوِّد الجراحُ نفســـه على العمل بكلتا اليدين، كل منهما على انفراد حتى إذا ما أصاب الكللُ إحديهما أتمت الأخرى المهمة.

أن يكون الجراح سليم البصر، حتى يرى بوضوح العضوَ الذي يودُّ التعامل معه جراحيًّا.

كما يجب أن يتمتع الجراح بذهن صـــافٍ يتأمل به الأحوال الطارئة التي لم تكن في خُطة الجراحة، والتي تقتضـــي التعامل معها ليســـتطيع اتخاذ القرار الصائب، واختيار الأدوات الملائمة والوسائط الأنفع.

كما يتعين أن يكون الجراح قوي التحمُّل صـــبورًا ليتمكن من إتمام العمليات التي تتطلب وقتا طويلا يقف فيه على قدميه.

وإذا كانت تلك هي الصـــفات البدنية والذهنية للجرَّاح، فليس أقلَّ منها أهميةً العنايةُ بغرفة العمليات التي ســـتجرى فيها الجراحة، والتي يجب على الطبيب التأكد من نظافتها ومناســـبتها لإجراء العمليات ووجود جميع الأدوات المطلوبة بالصفات الصحيحة.

ولم يغفل المؤلف الجانب العلمي والثقافي للجرَّاح، فطالبه بالاطلاع على المعارف الحديثة، والإلمام بالعلوم الطبيعية والكيماوية والفســيولوجية، وحثَّه على كثرة تمرين ذهنه ويديه بإجراء جراحات تدريبية على النماذج والموتى وتجربة الطُّرق المختلفة ليختار أنسبَها وأيسرها للأحياء.

كما يجب على الجراح الاستعانة بذوي الخبرة في هذا المجال، ومشاهدتهم أثناء إجرائهم للجراحات ليفيد من تجاربهم ما يســـاعده على مضـــاعفة إيجابياته وتقليل سلبياته.

كما يضيف لما سبق: ضرورة تمسك الجرَّاح في العمليات الجراحية بالقوانين الجراحية التي ثبت أن التزامَها والعمل على هديها موصِّـل لأفضـل النتائج وأقلِّ

الأضـــرار، ولا يســـمح للطبيب أن يتجاوز ذلك دون تجربة ســـابقة أو إجازة طبية حتى لا يتحمل مسئولية تصرفه السلبية.

كما يتعين على الجرَّاح أن يكون ذا دراية تـامـة بتشــــخيص الأمراض الجراحية وبمعرفة حدودها.

وأن يكون عـالمًـا علمًـا تـامًّـا بفن الأمراض البـاطنـة؛ إذ قـد يكون المرض الجراحيُّ مســـببًّا عن مرض باطني، كما أنـه قد يطرأ على المريض ذلك بعد العملية.

ضـــــرورة تعهد المريض بعد العملية الجراحية، وأن يختار لـه ما يوافقه من الأغذية والأدوية التي تعجل بشفائه، أو يجتنب ما يؤخره[11].

وإذا كانت التوجيهات الســـابقة تتعلق بفن الجراحة، فقد كان لأســـاتذة فن البـاطنـة والولادة وغيرهمـا مســـــاهمتهم الطبيـة في توجيـه تلامـذتهم نحو القيم والصـــفات التي يكفل الالتزام بها والعمل بهديها تحقيق النتائج المرجوة من لقاء الطبيب والمريض، فعُنوا ببيـان كيف يتعـامـل الطبيـب مع المريض في زيـارتـه الأولى، وهو حديث طويل مفيد أوجزه في النقاط التالية دون تعليق:

*ينبغي أن يسـتقبل الطبيب المريضَ بجانب من اللطف والبشـاشـة ويتجنب القسوة والخشونة.

*على الطبيب أن يبدأ حديثه مع المريض بما يزيل رهبته وتخوفه ويطلق لسانه ليبوح بما يكتمه عن الآخرين.

*يعِدُّ الطبيب ســـجلًّا للمريض يدون فيه الملاحظات الطبية التي يشـــاهدها على المريض حتى لا ينسى بعضها.

*على الطبيب قبل إجراء الفحص أن يدوِّن البيانات الشـــخصـــية للمريض كالتالي:

الاســـم، العمر، المهنة، محل الميلاد، محل الإقامة، الســـبب الذي دفع المريض لزيارة الطبيب، هل يعاني المريض من أمراض أخرى غير التي ذكرها؟ هل أحد من أهله مصاب أو أصيب بهذا المرض؟ ما الأمراض التي أصيب بها من قبل وعولجت؟ ما الأمراض التي أصـابت والدَي المريض إن كانا حيين، وما سبب وفاتهما أو أحدهما؟، هل من أولاد المريض من هو مصاب بالمرض نفسه أو بغيره؟

*بعد تدوين ما سبق يقوم الطبيب بفحص المريض مفضِّلا استخدام حواسه المدرَّبة، فيســتخدم الأذنين دون الالتجاء إلى "المســماع" في ســماع دقات قلب المريض، اللهم إلا في الحالات التي لا يمكن وضـع الأذن عليها مباشـرة كالعانة أو سير أحد الأوعية(12).

*إذا فلا يحق للطبيب أن يغفل قيمة حواســـه التي تملك من القدرة والعون على دقة التشــخيص مالا تملكه أجهزة حديثة يصـــل ثمنها إلى آلاف الدولارات، وإذا تعطلت في دار شفاء طالت بسببها آلام المريض وتعطلت مسيرة شفائه.

*على الطبيب أن يفحص الجهاز الهضـمي اعتمادًا على ما سـبق، فينظر اللسانَ والفمَ، ويسأل المريض عن طعم الفَم، وهل يعاني من إمساك أو إسهال، ويبحث عن المعدة والأمعاء ... إلخ.

*لا يغفل الطبيب فحص بقية أعضـاء الجسم لما لها منها من علاقة مفيدة ببقية الأجهزة.

*من الملاحظات الرائعة والنظرات الثاقبة للطبيب التي تعنى بالجانب النفسي للمريض، ألا يعتدُّ الطبيب بالقياس الأول لنبض قلب المريض؛ بل يلزمه أن يقيســـه مرة أخرى تكون بعد ملاطفة المريض، لأن القياس الأول قد تأتي ضـربـاته زائدة سـريعة نتيجة خوف المريض من دخوله على الطبيب أو العكس،

ويبين أن هناك فرقًا بين درجتي الحرارة العامة للجسد والحرارة الخاصة بالجزء المريض الذي تكون حرارته أشد.

*ثم بعد كل ما سبق يمكن للطبيب أن يصف الدواء المناسب باطمئنان وراحة بال وسكينة نفس.

إن ما جاء في السطور السابقة لم يكن مجرد كلام تسوَّد به بعض صحف مؤلفات أساتذة المدرسة الطبية، بل كان تدوينًا ووصفًا للسلوك العملي المتبع منهم مع المرضى في الإسبتالية، والتي كان التلاميذ في المدرسة الطبية شهودًا عليه يرونه بأعينهم، وقد عُني الأساتذة بتدوينه ليظل دستورًا أخلاقيًّا وأنموذجًا للصورة المثلى التي يجب أن يكون عليها الطبيب بعد تخرجه.

وكان للمولِّدين (أخصائي الولادة) نصيب من التوجيهات التي تساهم في نجاح مهامهم وتقدير أفراد المجتمع لحيائهم وحسن أخلاقهم إضافة لحسن تعليمهم وتدريبهم، فيوصيهم أساتذتهم بضرورة البقاء قريبًا من المرأة المتكررة الولادة، وليبق الطبيب في غرفة مجاورة لغرفتها؛ لأن بقاءه معها في غرفة واحدة يخجلها حين تحتاج للتبول وما شابه، على أن يتردد عليها ليطمئن على حالتها.

وينبه (المولِّد): إذا كانت آلام المرأة متتابعة وقوية، فيَلْزَمُهَا ويُهَوِّن عليها ويكلمها بما يبعد عنها الخوف ويخفف الألم.

وإذا أراد الطبيب جسَّ الحامل، عقَّم يديه إلى الساعد، وعقَّم أعضاء تناسل المرأة.

وإذا تمت ولادة الطفل ولم تتم ولادة الخلاص يلزم المولِّد الوقوفَ على يمين المرأة، ويكبس قاع الرحم كبسًا خفيفًا بيده اليسرى ويتابع باليمنى نبض المرأة[13].

وقد بيَّنوا للمولِّد الكثير من الواجبات الطبية التي عليه السير على هديها في العديد من أوضاع الولادة، كالوضع المنحني، والوضع المؤخري الخلفي، والوضع

المؤخري المستعرض للقمة، ولدى ضيق الحوض، كل ذلك وغيره لينجح المولِّد في مهمته التي تكفل للأم ومولودها السلامة.

المسئولون عن الصحة وترسيخ القيم:

لم تكن العناية بتخريج طبيب معد إعدادًا خلقيًّا وعلميًّا أمرًا يشغل بال مدرسي المدرسة الطبية وحدهم مع تلاميذهم، بل عني به كبار المسئولين عن الصحة في مصر آنذاك، فدأبوا على زيارة المدرسة الطبية بانتظام، وحضور امتحاناتها، والتحدث إلى تلامذتها بما يبث فيهم روح الجد والاجتهاد والعطاء وإنكار الذات، ومن كلمة للدكتور حسن بيك محمود مفتش الصحة أمام تلامذة المدرسة الطبية بعد انتهائهم من الامتحان يخاطبهم قائلا:

" فيا أيها التلامذة الأنجاب، قد أثمرت أفنان نتائج التعليم في هذه المدرسة الطبية، فاقتطفت عقولُكم من رياضِ جَنَى ثمراتها الشهية، ... ...، فقد سرَّنا ما شاهدناه من حسن إجابتكم، وتحقَّق ما كنا نتمناه، فعليكم بالاجتهاد في جميع الأوقات، والنشاط وترك الكسل حتى وقت المسامحات، فالأمل العام من ذي الفضل والإنعام، أن نفوز جميعًا بمقاصدنا الحقيقية، ونسلك في تقدم الإنسانية، ونراعي فقراءنا، ونكتم سر مرضانا، ونجيب من دعانا، ونقوم بواجبات حب الوطن وخدمته في كل زمَن، على أقوم طريق وأحسن سَنَن[(14)]".

تبجيل المعلم من أجل القيم:

عُني الإسلام بالعلم، ورفع منزلة العلماء وقدرهم، لأنهم يغذون العقول التي كرم الله بها الإنسان، وينفضون عنها الجهل، وجعل تبجيلهم وتقديرهم من الواجبات على تلامذتهم، بل وعلى مَن سواهم ممن يعرفون الفضل لذويه، فها هو الخليفة المأمون كان قد طلب من الفرَّاء[(15)] أن يعلم ولديه علم النحو، وفي يوم من الأيام أراد الفرَّاء أن يقوم من مجلسه فتسابق الولدان إلى نعل الفرَّاء أيهما

يقدمه له، فاختلفا فيمن يفعل ذلك، وأخيرًا اتفقا على أن يقدم كل منهما واحدة، ورُفع الخبر إلى المأمون، فاستدعى الفرَّاء وقال له:

من أعزُّ الناس ؟

قال الفرَّاءُ: لا أعلم أعزَّ من أمير المؤمنين.

قال المأمون: إن أعزَّ الناس من إذا نهض من مجلســـه تقاتل على تقديم نعليه ولِيَّا عهدِ المسلمين، حتى رضي كلٌّ منهما أن يقدم له فَرْدًا.

فظن الفرَّاء أن ذلك أغضب الخليفة؛ فاعتذر بأنه حاول منعهما فأبَيَا.

فقال المأمون: لو منعتَهما لعاتبتُك، وما وَضَعَ ما فعلاه من شرفهما، بل رفع من قدرِهما، وبيّنَ عن جوهرهما، ولقد بينت لي مَخِيْلَةَ الفِراسَـــة بفعلهما، فليس يكبر الرّجُلُ وإن كان كبيرًا عن ثلاث: عن تواضـــعه لســـلطانه، ووالده، ومعلّمِه العلمَ(10).

وقد كان تلامذة المدرســـة على وعي بهذه الأخلاق الفاضـــلة وإدراكٍ لمنزلة أســـاتذتهم الذين قدموا لهم خلاصـــة تجاربهم وعصـــارة أفكارهم وعطفوا عليهم وســـاعدوهم فكريًّا وماديًّا، ورفعوا من روحهم المعنوية، وأعدوهم وأمدوهم بكل ما يحتاجونه في مســـتقبل حياتهم العملية من نصـــائح وإرشـــادات، فحفظ التلامذة الجميلَ وكانوا عند حســـن الظن بهم وفاءً وإجلالا وتبجيلا لأســـاتذتهم، وذكرِهم ببعض خصـــالهم الشـــريفة وصـــفاتهم النبيلة، فهذا الطبيب حســـين وفائي البغدادي يتحدث عن أســـتاذه الطبيب العلامة أحمد بك ندى معلم علم النبات في المدرســـة الطبية، فيذكر كرمه وشـــفقته وســـمو أدبه وحســـن رعايته وحرصـــه على تحصـــيلهم الدروس، فيقول:

ثم مما ينبغي التشكُّر له صـاحب السـعادة السـيد أحمد بك ندى؛ فإنه حفظه الله كان رجلا كريما سـخيًّا، عفيف النفس، شـفوقا على تلامذته، وكان من عاداته أنه لا يســـب ولا يشـــتم أحدًا، ويعامل الكبير كالصـــغير، والغني كالفقير بطيب

النفس، وكان يتنعم على تلامذته في كل موسم مما يليق به، فكان يُحْضِرُ في درسه الفواكه اللازمة للدراسة، وأخيرًا بعد الدرس يفرقها على التلامذة، وفي الدرس إذا ندب أحدًا يقول له: يا سيدي فلان، وكان عند ختام الدرس يعطي لتلامذته بعض الدراهم، وأيضًا في شهر (المحرّم) عاشوراء يعطي لهم دراهم لأجل صنع الحبوب، فانظر إلى هذا الرجل الذي كان فريدًا في عصره، وحيدًا في دهره، عالمًا زاهدًا صالحًا، إذا أعطى الدرس لا يهمل في إعطائه، وكان كلامه سلسًا يفهمه كل ذي ذهن بليد، وإذا ابتدأ في أي درس إن كان، يجمع[17] فنه في أول درسه، وإذا حضرت تلامذة من الخارج بعد إعطائه بعض الدروس يعيدها لهم في درس واحد بطريقة مختصرة مفيدة، فانظر إلى هذا الرجل الصالح الذي مدحُه عمَّ وفَاق، ولم يوجد له في هذا الزمن مثيل ولا وِفاق، حفظه الله وأدامه، وحفظ له أنجالَه، آمين[18].

القيم الطبية وقسم الطبيب:

أما القيم التي يجب أن يختص بها الطبيب لمناسبتها لطبيعة عمله وما يتطلبه هذا العمل من خصوصيات لا تتوفر لغيره فقد تضمنها القسَم الذي اتخذته المدرسة منهجًا لتلامذتها يتعهدون أمام الله بكل بنوده، وقد آثرت ذكره بنصِّه لأنه يمثل وثيقةً تعكس منهج المدرسة الطبية في ترسيخ القيم في نفوس أولادها، وقد جاء القسَم شاملا كل ما يجب على الطبيب نحو من يتعامل معهم من المرضى في المستشفى أو العيادة الخاصة، وما يجب عليه نحو أساتذته ومعلميه وأولادهم، وما يلزمه نحو زملائه، وما يتطلبه الرقي بمستواه العلمي ...إلخ.

ولا بد وأن يعلم الأطباء أن القسَم الذي يؤدونه عند تخرجهم هو قسَمٌ عند الله عظيم؟، وأن يعلموا أنهم بقَسَمِهم هذا يعاهدون الله –عز وجل– على مراقبته وطاعته وعدم مخالفة أوامره ونواهيه في كل ما يتعلق بمهنتهم، وأن حصولهم على الشهادة لا يعني أنهم حصّلوا من علوم الطب ما يغنيهم عن التزود والسؤال

والمشــورة الطبية، وأنهم ســيظلون بحاجة للممارســة ومتابعة من هم أكثر خبرة، وعدم التجرؤ على اتخاذ قرار فردي في أمر طبي لا يتأكدون من صــوابه، أو لا يحســنون القيام به، وليعلموا أن قَسَــمَهم هذا يجعلهم ضــامنين ومسـئولين عما يُقْدِمون عليه مما يتعلق بصـحة المريض والمحافظة على حياته، فصـونوا عهدكم مع الله، ولا تحنثوا في القسَم؛ لأن الذين يشـترون بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلا، لا خَلاق لهم في الدنيا، ولهم في الأخرة عذاب عظيم، وإليكم نَصَّ القسم:

بسم الله الرحمن الرحيم

اللهم إني أســألك بِعِزِّ جلالك وكبريائك، وخيرِ خليقتك من أصــفيائك، أن أصــرف عمْري في الاشــتغال بصــناعتي[19] ، واجتهدُ فيها؛ لتتسـعَ بذلك دائرة معرفتي، وفي العمل بمقتضــاها أبذل هِمَّتي، وأن أكون رؤوفًا بالفقراء والمســاكين من المرضَــى، وأرجو في مقابلة ذلك الثوابَ عند الله والقبولَ والرضــا، ولا أكون طامعًا في جَلْبِ الدنيا وجمع الدراهم[20]، بل أُسْـــعِفُ العليلَ المُعْدَمَ من مالي بأثْمَانِ الأدويةِ والمراهم، مُبْتَغِيًا بذلك وجهَ ربِّ العباد؛ كي أُحْشَــرَ في زُمْرَةِ الفاعلين للخير يومَ التَّنَادِ[21]، وإذا دُعِيتُ إلى علاج غني وفقيرٍ في آنٍ واحدٍ أُقَدِّمُ الفقيرَ على الغني، واجتهد في مداواته، وَلِدَائِهِ أُمَانِعُ وأُبَاعِدُ، لدفع مضــــاعفة المصــــيبة عليه بالمرض والفَاقة، فإنه إن طال عليه الحال ضــــاعت عيالُه، ودَهَمَهُ[22] ما ليس له به طاقة.

وكذلك أُوثِرُ ما كان نافعًا لبلدتي وعشــــيرتي، والجندي الذي يحامِي الوطن من هجوم العدو ووطأته.

ولا أطلب من المرضَى المُوسِرِينَ أُجْرَةً تزيد عن اللائق والمناسب، ولا أجعل للمرضَــى مدخَلا في قلبي، وأَثَرَةً في المكاســب، ولا أُهَوِّل عليهم الأمرَ، ولا أبالغ في المرض [23] ليبذلوا لي جزيل المال، بل ما يُكَافِئُ تَعَبِي، وما يليق بهم من الحال، وأعظِّم أســتاذي وأُفَضِّــلُهُ على والدِي، وأجعل أولادَه كإخْوَانِي وولدِي، وإذا

طلب أحدٌ منهم تعلم الحِكمة[24] أُعَلِّمَهَا له بدون نَوَالٍ[25]، ولا أكتم منها كلمة، وأدبِّر [26] المرضَى بما يليق بهم من التدبير بحسب ما تقتضيه الصناعة مما هو بين الأطباء شهير، ولا أعمل عملية جراحية إلا إذا تعذر شفاءُ المريض بدونها، بل أراعي الحكمة، وأرتب منافعه على قوانينها، ولا أشير على أحد بتعاطي السم، ولا أُعطيه لمن يطلبه منِّي، ولا أعطي لحَامِلٍ دواءً يكون سببًا في إجهاض حَمْلِهَا، بل أَدْرَأُ ذلك كلَّه عني.

ولا أدخل بيتًا لمعالجة مريضٍ إلا لإسعافه، مجتنبًا للفساد، متنصِّلا من ظلم الأنام وضرر العباد.

وإذا حدث وباءٌ كالهَيْضَة[27] بذلتُ هِمَّتِي، وأسرعتُ النهضة قائلا لبَّيْك بدون تأخير لمن يدعوني في عظيم وحقير؛ مبتغيًا بذلك رضا مالكِ ناصيتي، ممتثلا أوامر وليِّ نعمتي.

وإذا سَمِعتُ أو رأيتُ قَدْحًا[28] في محافلِ الناس أو بيوتهم سواء إن تعلق بصناعتي أو بغيرها لا أفْشِيه، ولا أُشيع عباراتِهم، بل أضربُ عن ذلك صَفْحًا[29] كأني لم أسمع قَدْحًا.

واجتنبُ الفسادَ والفواحشَ ما ظهر منها وما بطن، وانزح حبَّها من قلبي بقدر الطاقة، وأسلك السبيل الحَسَن، ولا أطعن في أحدٍ من أهل صناعتي؛ مُريدًا بذلك انفرادي وشهرتي، بل إذا اشتبه عليَّ تشخيصُ داءِ مريضٍ أو لم اهتدِ لدوائه، أشاور غيري من أهل صناعتي فيه، ولا أجعل الكِبْرَ والحياءَ سببًا لاستحكام دائه.

أسألك اللهم مجيبَ السائلين أن توفِّقني إلى ما اخترتَه لأوليائك، وبفضلك عليَّ تُعِنِّي؛ عسى أن تنجيني من الفضيحة والمَلَامِ، وتحفظني من ذلك؛ كي أفوز بدخول دار السلام بسلام[31] .

نتائج البحث:

1- مهنة الطب مهنة إنسانية شريفة تحظى بالتقدير والإجلال من جميع أفراد المجتمع ومؤسساته، والمحافظة على هذه الصورة ضرورة دينية وإنسانية لا تحتمل التهاون أو التغافل.

2- ضرورة قيام الأسرة وباقي المؤسسات الدينية والتعليمية الحكومية والأهلية وغيرها بدورها في غرس القيم والخصال الكريمة والصفات الحسنة في نفوس أولادنا على مدار سنواتهم الدراسية لنجني ثمار ذلك منهم عند تقلدهم المناصب وممارسة الأعمال والوظائف.

3- تقوية صلة أولادنا بالله -عز وجل- وتبصيرهم بضرورة مراقبة الله في كل أحوالهم وتخلقهم بالأخلاق الكريمة وتأدبهم بالآداب السامية.

4- أهمية وضع مناهج دراسية تُعنَى بالجانب التربوي وقيم وآداب المهن والوظائف وتدريسها في المراحل الدراسية.

5- مدرسة محمد علي الطبية أنموذج رائع يحتاج لدراسات متأنية مفصَّلة للإفادة من تجاربها في ترسيخ قيم وآداب مهنة الطب في نفوس تلاميذها.

6- المعلمون في جميع المراحل الدراسية أصحاب رسالة سامية فيجب أن يتحلوا بصفات الرحمة والعطف والعطاء واحتواء تلاميذهم ومعالجة أخطائهم بالقدوة الحسنة والتوجيه القويم والسديد إيمانًا واحتسابًا.

7- تبجيل واحترام المعلم وإكباره وإجلاله في جميع المراحل الدراسية واجب ديني، لابد من الحض عليه ومحاسبة من يتهاون فيه أو يقلل أو يسخر منه بأي صورة من الصور.

8- العمل على وجود لجنة دينية طبية بنقابة الأطباء وفروعها تتكون من عدد من رجال الدين ومن الأطباء الأكفاء تكون مهمتها دراسة الظواهر المرضية وسبل علاجها المستحدثة، وبيان الحكم الشرعي فيها، مع نشر نتائج هذه الفتاوى

والأحكام على المؤسسات العلاجية وتوزيعها على أعضاء النقابة مع إلزامهم بالعمل بمقتضاها.

9- سعي اللجنة الطبية بمجلس الشعب إلى العمل على تغليظ عقوبة من يخل بقسم وشرف وميثاق مهنة الطب، حرصًا على كرامة المرضى وحرماتهم، وحفاظا على منزلة الطبيب وسمعته.

***

الحواشي والمصادر والمراجع:

1- حديث صحيح، انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001/1421: 148/41.

2- رواه أَبُو يَعْلَى، وفيه مصعب بنُ ثابت وَثَّقَهُ ابن حِبَّانَ، وَضَعَّفَهُ جَمَاعَة، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ/ ١٩٩٤ م : 98/4.

3- انظر رسالة الرازي إلى تلميذه (أخلاق الطبيب)، وآداب الطبيب لإسحاق الرهاوي.

4- رسالة الرازي لتلميذه (أخلاق الطبيب): تحقيق: د عبد اللطيف العبد، مكتبة دار التراث، الطبعة الأولى، 1977/1397 :19.

5- السابق: 33.

6- متطبب: أي ممارس مهنة الطب ومعلمها.

7- رسالة الرازي إلى تلميذه (مصدر سابق):32.

8- آداب الشافعي ومناقبه: أبو محمد، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م: 114/2.

9- هبة المحتاج في مختصر الطب الباطني: عيسى بك حمدي، مطبعة الوطن، مصر، 1880: 2.

10- الطب والأطباء في مصر: سيلفيا شيفولو: ترجمة، ماجدة أباظة، المجلس الأعلى للثقافة، 2005: 11.

11- مبلغ البراح في علم الجراح: كلوت بك، تحرير محمد الهراوي، مطبعة بولاق، 1251: 15.

12- هبة المحتاج في مختصر الطب الباطني(مصدر سابق): 5.

13- لمحات السعادة في فن الولادة: عيسى باشا حمدي، المطبعة الأميرية، 1320هـ :120.

14- الرحلة الوفائية في المدرسة الطبية: حسين وفائي البغدادي: تحقيق: د. محمود مهدي بدوي، مركز تحقيق التراث العربي، جامعة مصر: 180.

15- الفراء: هو أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله الأسلمي، المعروف بالفراء، ولد سنة 144هـ، كان بارعا في اللغة والنحو وفنون الأدب، له تصانيف كثيرة منه المصادر في القرآن، وكتاب الوقف والابتداء، توفي سنة 207هـ. وفيات الأعيان: أبو العباس شمس الدين ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت176/6.

16- إنباه الرواة على أنباه النحاة: جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي – القاهرة، ومؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٢م: 18/4.

17- يجمع: أي يلخص مجموع الدرس.

18- الرحلة الوفائية (مصدر سابق): 148.

19- صناعتي: المراد مهنة الطب.

20- الدراهم: المراد بها الأموال عموما.

21- يوم التناد" يوم القيامة.

22- دهمه: أصابه.

23- أبالغ في المرض: أي أبالغ في ذكر مضاره وآثاره الخطيرة تخويفا للمريض وأهله ليدفعوا المزيد من المال.

24- الحكمة: علم الطب.

25- بدون نوال: أي بدون أجر.

26- أدبر : أشخِّص وأداوي.

27- الهيضة: المراد وباء الكوليرا.

28- القدح: الذم.

29- أضرب صفحا: أعرض عنه وأتجاهله.

30- أنزح: أنزع وأفرغ.

31- العمليات الجراحية الصغرى: محمد علي البقلي، مطبعة بولاق، 1259هـ: 10.